في جبين الشمس غمامة

قصة بقلم يوسف سعيد

كالعادة نهار الثلاثاء يحكم على ذاته بالموت تحت مطارق الشمس ، وسيوف الساعات ، والاوقات ، والهزيع ، والجولان .

لا فرق بين معدة يوم الثلاثاء ، او معدة نهار الخميس ، السمسار في بوابة « الكراج » ينادي كركوك ، اربيل ، سليمانية ، وهنا في بيروت ينادي عاليه ، زحله ، طرابلس .

اموت لان الحشر يأتيني في رتابة هذه الحياة . الايام واحدة ، ورغيف الخبز يعطيني طاقه ويأكل مني كل مسرة أكله ، ويخيفني ، ويأكلني ولا يخافني لو انقطع الخبز من الشارع ، من البيت ، من المدينة ، فهل سيصرخ السمسار ، بيروت ، طرابلس ، عاليه ، او كركوك ، اربيل ، برطلة ، بعشيقة ، السليمانية .

لست كرة متكورة ملساء ... انا انسان اندحرج كالكرة . املك مخا وخوفا .

تموت الذكرى ذائبة بين ريقي ، وقبرها لا زال منذ وفاتها في الجهة اليمنى من طريق حنجرتي .

مع من اتحاور ؟ مع نفسي !

هذا الصباح يوم الثلاثاء ، اطرافه بليدة ، يخثر لي حليب المشكلة . يجب ان اقصد الامن العام لاجدد جوازي . ماذا ساقول ؟ انني اخاف هذا الطريق . وفي الدائرة قال لي الموظف :

ـ جوازك ينتهي بعد هذا التجديد ، فعليك ان تأتي بجواز آخر جديد .

ـ من سفارتي ، اليس كذلك ؟

ـ نعم (ورأسه منكب على الكتابة لا يلتفت الي) .

ـ سأجدده .

ـ لا تنس ، لان النسيان فيه مسؤولية قانونية .

كنت أشعر بالعرق يتصبب من جسمي ، والحياة تبدو سوداء عالقة في جدائل غمامة بيضاء . لماذا اخاف ؟

قال لي ابي ، وكنت صغيرا ، ان الجندرمة ايام العثمانيين اذا ما مروا في السوق او الشارع يقف امامهم كل رجال ذلك العصر . الجندرمة يميت ، يعذب ، يهلك ، ينفي ، يقتل . وانا اذا رأيت شرطيا اخاف ، لماذا ؟ لا ادري .

ايعني خوفي من جراء هذه القصص التي اعيدت على مسرح مخيلتي اياما وليالي ؟ لا ادري .

؟؟؟ ... !!!

وخرجت ... آه انتهت الحمى العالقة باخمص اصابعي .

فنجان قهوة بعد تعب مليء بالخوف الذ شيء اشعر به . فنجان قهوة ، قليلة السكر .

« تكرم » ... ويذهب بهدوء جدا ، الامر روتيني عنده . الطلب من الزبائن لا يتعدى القهوة ، والكوكاكولا .

ـ انت تأخرت !

ـ حتى تشعر بالراحة في رشفك للفنجان .

ـ تفضل كأسا من الماء القراح .

ـ هل انت تملك المقهى ؟

ـ بل انا خادم هنا .

ـ الا تتمنى ان تملك مقهى مثل هذا ؟

ـ لا .

ـ لماذا ؟

ـ لانك كنت تتصور انني سأقول بلى . ويضحك .

ـ هل انت سعيد هنا .

ـ بل تعيس .

ـ لماذا ؟

ـ لانني اخاف التعاسة .

ـ تحرر منها .

ـ وهل تحرر غيري من تعاسته ؟ ـ طبعا .

ـ من ؟

ـ جارنا الذي اعلن افلاسه قبل اسبوع والبارحة مات ! .

ضحك ، وذهب الى زبون آخر .

وخرجت . انني لا اريد ان اسمع انسانا يقص علي اقاصيص التعاسة ، لانني اشعر بسعادة ، بغبطة ، بحبور . الم اتحرر من موظف الامن العام .

كان الشارع فسيحا ، الرياحين في كل مكان . الظلال كثيفة ، المارة قليلون . حلقت بذاتي في بحيرات من التفكير الذي اعشقه ، سأمشي على قدمي وافكر ، سأنسى ضوضاء الآلة ، والانسان ، والحوادث ، سافكر في احلامي التي اخلقها ، وأؤمن بها ، ثم اتناساها مرغما ، لاخلق اخرى .

آه انت هنا . لماذا تسير ماشيا . السيارات كثيرة .

مرحبا بك يا سمير ، اهلا .

كيف حالك ؟ والى اين ؟

الى المستشفى

هل من جديد ؟

المستشفى قصة لا تنتهي في كل سرير الف حادثة جديدة .

من في المستشفى ؟

فؤاد . فجاة غاب عن الوجود ، واستنزف دما حشره الموت ، وضايقته الآلام ـ كان ينوي الرحيل مرغما الى السماء . ولكنه انقذ باعجوبة .

ـ والان ؟

ـ يبتسم . انه نادم لانه لم يرحل الى الملكوت الاسود .

ـ لماذا ؟

ـ لان قنينة العرق التي صادفها ، منعه الطبيب عن مزاولتها . ويعتقد ان الموت مع العرق اجمل من الموت بلا عرق .

ـ ماذا يعتقد الآن ؟

ـ كما تعتقد انت .

ـ الحياة سخيفة بدون عادة .

ـ صح .

ـ اذا فلماذا يمنع فؤاد عن قنينته المملوءة عرقا ؟

ـ هكذا شاء الطبيب .

وسمعت أن فواد توفي في اليوم التالي بصدمة نوبية اخرى اعنف من الاولى ومات بعد أن ترك بضعة اسطر فوق ورقة بيضاء كبيرة . قال رحمه الله :

« الشمس منحدرة بخاصرتها على الساحل الارضي والصفاء يبدو في الاجواء البعيدة نقيا ، بلا غيوم . الدواليب الحاملة كيان الزمن تكر ، تحوك لنا الايام . وتدور الرحى الدهرية ويستمر الالم ، ويستقر الموت على من اختارهم ...

عندما يختارني الموت ، فهل سيكون في جبين الشمس، غمامة؟».

نزيل بيروت

الأب يوسف سعيد